أضواء قرآنية على ظواهر كونية في الآفاق والأنفس

د. أبو بكر خالد سعد الله - السعودية

يقع كتاب «أضواء قرآنية على ظواهر كونية في الآفاق والأنفس» الذي تم نشره بالتوازي في الجزائر «الشركة الجزائرية اللبنانية للنشر والتوزيع» وبيروت «دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع» في ٣٨٤ صفحة، للمؤلف، د. محمد سعيد مولاي، استاذ الرياضيات بجامعة الملك خالد بمنطقة أبها بالسعودية.

ويعتبر د. مولاي من النشطين في حقل الدعوة الاسلامية منذ ريعان شبابه، تربى في حلقات المفكر المسلم مالك بن نبي.

يؤكد الكتاب على ان الانسان يتعرض بعد اكتشاف السنن الثابتة التي وضعها الله في الكائنات والقوانين التي تتحكم فيها، الى هزات وثورات علمية واجتماعية ونفسية، مثل ذلك: الثورة العلمية التي حدثت باكتشاف كوبرنيك الفلكية التي نقلت العالم الى فكرة مركزية الشمس ودوران الارض بعد ان كان بطليموس يتصور ثبات الارض.

يقول المؤلف في مقدمته: «فكم من ثورة او طفرة عبر تاريخ البشر، غيّرت من مسلمات خالها اتباعها باقية إلى الابد فتقلبت لهم الامور رأساً على عقب»!

عالم المجرات

يستهل الفصل الاول بتناول موضوع السنن في التحولات التي فرضتها الاكتشافات في الفضاء الواسع (عالم المجرات) وفي الفضاء الدقيق (عالم الذرة)، ويتحدث عن آيتي الليل والنهار والثوابت الطبيعية، فاذا اخذنا موضوع الذرة مثلاً، لاحظنا انها وحدة اساسية لجميع انواع المادة، ولطالما اعتقد الانسان انها جزء غير قابل للتجزئة، ثم تبيّن له انها مركبة باحكام من نواة (موجبة) يتحرك حولها كهروب (سالب)، وبعد التمعن اتضح ان الذرة مصدر عجيب للطاقة، ولها فوائد جمة اخرى في مجال الصناعة والزراعة وتركيب الادوية وغيرها.

ثم ان الانسان ظن مرة اخرى ان ما اكتشفه في نواة الذرة غير قابل للتقسيم، لكن بعد المزيد من التعمق والدراسة تجلّى ان هذه الجسيمات تتركب بدورها من عناصر ادق واكثر تعقيداً، وهكذا كلما واصلنا البحث اكتشفنا ان كل جزء ينقسم الى جزيئات وكل جزيء ينقسم الى جزيئات ادق منه. وكأن عملية التجزئة تتواصل بدون انقطاع، الى ما لا نهاية، وتلك حكمة الله في الكون تذكرنا بقوله تعالى ﴿وأنّ إلى ربك المنتهى﴾ (النجم -٤٢).

مهمة العلماء التوفيق بين تأويل الأحاديث في عالم «الكبريات» بناء على النظرية النسبية وبين تأويل الأحداث في عالم «الصغريات» بناء على نظرية الارتياب

وبذلك نتيقّن ان الخلائق قائمة على سنن محكمة، وهي تمضي لتحقيق اهداف معينة قدّرها بارئها تقديراً، وأتى المؤلف في هذا الشأن بشواهد عدة من الثوابت الطبيعية والسنن الوارد ذكرها في القرآن الكريم.

نسبية المفاهيم العلمية والاجتماعية

ثم تناول د. مولاي موضوع نسبية المفاهيم، وقدم لمحة عن نشأة مفهوم النسبية في العلم الحديث، وربط هذا المفهوم بمفهوم الحرية التي لا وجود لها بدون قوانين، وتحدث عن التجاوزات في استغلال الحريات التي نشأ عنها فساد كبير، لكن الانسان حين يحدث به شر الفساد يراجع نفسه فيعود الى رشده، او تقوم فئة من المصلحين بمقاومة ذلك الفساد ورد باطل المبطلين ودفع خطر الاشرار على العباد.

كما تحدث عن مبدأ الحتمية ومبدأ الارتياب في الفيزياء القائل بأنه لا يمكن التحديد المستقبلي لمكان وسرعة المجيء في آن واحد، وهو ما يتناقض مع مبدأ الحتمية، وهنا يقف الانسان تائهاً بين هذه المتناقضات في تفسير ما يجري في كبريات الكائنات وفي صغائرها، ويجتهد العلماء حالياً للتوفيق بين تأويل الاحاديث في عالم «الكبريات» بناء على النظرية النسبية التي تهمل مبدأ الارتياب، وبين تأويل الاحداث في عالم «الصغريات» بناء على نظرية الارتياب، ولم ينس المؤلف هنا تقديم نماذج من الكتاب والسنة (ثبات الجبال وحركتها، اليوم الآخر، قصة موسى والخضر).

وبعد ذلك تناول الكتاب المفاهيم الثابتة وضرورة وجودها فتعرض مثلاً الى النظام الدولي للمقاييس والاوزان والانظمة المالية والنقدية، والمعالم في العلوم والثقافات، والمبادئ المقدسة في الاديان، وفي موضوع المعالم اشار الى انواع عدة، منها المعالم التاريخية، والجغرافية، والمعالم في الرياضيات (الوحيد البعيد، وثنائية الابعاد وثلاثية الابعاد، ورباعية الابعاد، المسماة «الزمكان»، اي تلك التي تأخذ ابعاد الفضاء الثلاثة مضافا اليها الزمن، الخ) وجال الكاتب بين الحضارات المختلفة (وادي النيل، ما بين النهرين، اليونان، الروم، الصين والهند) باحثاً عن معالمها، كما ربط الصلة بالاديان والمعتقدات والمذاهب في العصور الحديثة (الاقطاعية، الاشتراكية، الثورة الفرنسية، الداروينية) حتى وصل الى ما سماهم «فراعنة اليوم»، وهم اولئك الغربيون الذين يعتبرون طريقتهم هي «الطريقة المثلى» في الحياة لا بد ان ينصاع اليها جميع من في الارض.

وقد ورد في هذا الموضوع الكثير

من الامثلة المتنوعة التي اوضحت ان الانسان ما فتئ - قديماً وحديثاً - يركن الى دين من الاديان والمذاهب عبر الحضارات، وذلك بحثاً عن اسباب الثبات والاستقرار، «ولعله يذوّق بها من شجرة الخلد وملك لا يبلى تماماً كما ظنّ من قبل أبواه آدم وحواء» (ص١٤٢)، ويستخلص المؤلف ان المفاهيم الثابتة بالغة الاهمية، وكلما اراد الانسان ان ينفك من قيودها عبر الثورات او الطفرات انقلب الى سواها ليتقيّد بها مجدداً بلا هوادة.

جدلية الثابت والمتغير

وبعد ذلك انتقل الكاتب الى الفصل الثاني مستعرضاً ومحللاً جدلية الثابت والمتغير، فبدأ بتناول اشكالية الموضوع: نحن هنا امام ظاهرة بشقّين متقابلين، هما واقعية النسبية وحتمية التثبيت، ثم عالج القضية بأسلوب يتغلب عليه المنطق الرياضي الذي تشبع به المؤلف خلال تجربته الطويلة، حتى اننا نخال انفسنا احياناً امام كتاب رياضيات خُطّ بلغة عربية سلسة، خالية تماماً من الرموز المتداولة في الرياضيات، والحقيقة ان الموضوع يفرض، من حين لآخر هذا الاسلوب غير الانشائي، مثلاً، عندما يناقش المؤلف تصورات الفيلسوف كانط، ومبرهنات عالم المنطق الشهير غودل الذي اثبت في النصف الاول من القرن العشرين ان هناك قضايا رياضية جادة لا يمكن البت فيها، اي قضايا يستحيل البت في صحتها او خطئها، بمعنى انها صحيحة وخاطئة في آن واحد (ان انت اثبت صحتها استنتجت خطأها، والعكس بالعكس).

سدرة المنتهى

وينتقل بنا المؤلف الى الفصل الثالث سابحاً بين البحث عن الحقيقة وصولاً الى «سدرة المنتهى»، وقد استهل حديثه عن الشك واليقين عند الغزالي، وعن اختلافات الوسائل في طلب المنتهى، ثم ذكرنا المؤلف بنظرة سيدنا ابراهيم في ملكوت السموات والارض وبدرجات العلماء، ومقامات الانبياء، وعالج سلوك الانسان - الذي يمشي مكبّا على وجهه، او يمشي مستقيماً على سبيل ربه - معالجة نفسية بناء على ما ذهبت اليه الدراسات الحديثة في مجال علوم النفس التحليلية حيث نجد فيها «مذهبين على وجه الخصوص، احدهما يركّز على الجانب «الفجوري» للنفس ويقوم على تداعيات «السوءات»، والآخر امعن النظر في الجانب الاخلاقي القائم على ما يسمى بالنماذج البدائية» (ص٢٥٠).

وفيما يخص البحث عن الحقيقة المطلقة فانه لا يتم الا بمنهجية محكمة، وللفطرة منهجها واتجاهها الذي جبلت عليه، فان خالف الانسان هذا الاتجاه زلّ ووقع في طريق مسدود، وكذلك السبيل الى بلوغ السموات والارض، فهو نوعان: «سبيل معوجّ للفطرة ومسدود بلا جدوى، وسبيل مستقيم على الفطرة وممدود بلا حدود». (ص٢٥١).

ويرى المؤلف ان من اوجب الواجبات في عصرنا هذا الذي اشتد فيه العداء لدين الله وانحرفت فيه العلوم عن سبيل التوحيد - بدعوى العولمة والحياد - «اعادة المياه الى مجاريها برفع الشبهات وتقديم البرهان على ان منابع العلم والمعرفة هي من الله عز وجل، كما ان مقاصدها القصوى هي الى الله جل وعلا» (ص٢٥٠).

الأزواج وكفتا الميزان

اما الفصل الرابع والاخير فخصص للحديث عن ظاهرة الازواج، فيشير الى الميزان والتوازن، ويلاحظ ان للميزان كفتين يقوم عليهما الوزن والقياس، وبذلك تتقابل البضاعة بالثمن. ويتحقق العدل بين البائع والمشتري، و«باستقامة الميزان يتم التوازن وتتحسن العلاقات وبخسرانه يضيع القسط ويظهر الفساد بين الناس» (٢٨٧)، والواقع ان هذه المقارنات والتوازنات لا تنطبق على نطاق الماديات دون غيرها، بل تمتد الى عالم المعنويات كالاخلاق والافكار، فكل شيء قائم في الحياة على الميزان، على القسطاس المستقيم، ومن ثم يحق لنا التساؤل، لا بد من وجود كفتين للميزان لتحقيق التوازن، فما هما كفتا ميزان الكائنات والانفس، وما هي انواعها وخصائصها؟

وعرج د. مولاي على بعض المفاهيم المتداولة في الرياضيات واوضحها بلغة سلسة للقارئ مثل «الاستنساخ» الذي يقابله «الاستقراء» و«التحليل» الذي يقابله «التركيب»، كما تناول المنهجين التوفيقي والمقارن».

وفي الخلاصة أشار المؤلف الى ان الخصائص التسع للزوجية الوارد ذكرها اعلاه تمثل تسع سنن كونية ثابتة كلها آيات بينات، وبناء على ذلك يحاول المؤلف تعريف «الزوجية» في قالب رياضي حيث يدلي بهذا التعريف: تحقق ثنائية زوجية اذا تكامل طرفاها في نوع من الوحدة بحيث لا معنى لاحد الطرفين، ولا وجود له، ولا توازن، الا بمعية الطرف الآخر. وهكذا ندرك ان كتاب د. مولاي «أضواء قرآنية على ظواهر كونية على الآفاق والأنفس» يجمع كمّا هائلاً من التأملات في الظواهر الكونية والفكرية حاول مؤلفه فحصها فحصاً اخضعه الى آيات القرآن الكريم وبيانه.